العدد (1882) السنة الثامنة - الأربعاء (18) آب 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

المـواطـنـة وصـــراع الانـتـمـاءات

في ظل هيمنة العديد من المصطلحات التي دخلت قاموس مفرداتنا المتداولة بشكل يومي سواء في أحاديثنا الخاصة أو عبر وسائل الإعلام نجد إن الحاجة تتطلب تحرير عدد من المصطلحات التي غالباً ما تكون عرضة للتساؤل خصوصاً أن شبكة الاتصال العالمية يزداد تأثيرها يوماً بعد يوم. ولعل مفهوم المواطنة من أكثر المصطلحات حاجة إلى الإثارة والمدارسة والفهم، ومن ثم التجسيد، ذلك أن الانتماء حاجة متأصلة في طبيعة النفس البشرية، وإنسان من غير وطن تائه، والوطن من غير إنسان مهجور لا معنى له.ومن هنا تبرز أهمية مطارحة هذا المصطلح الحيوي لتحليل المركبات التي يتألف منها وكيفية رعايتها ومن ثم بحث طبيعة التأثير والتأثر والتفاعل المطلوبة من جميع مكونات هذا المعنى لتعزيز مقوماته الذاتية وإيجابية علاقاته الخارجية.

حسين علي الحمداني
كاتب وباحث

التفاعل فيما بينها لتخدم كل واحدة منها الأخرى فيما يحقق مصلحة الجميع ورفاهيته.

ولا تزال مجموعة من المفاهيم في ساحتنا الثقافية والاجتماعية شائكة وغير منضبطة في وعي أفراد المجتمع ومؤسساته،مما يسبب خللاً في الممارسات السلوكية التي هي اليوم أحوج ما تكون إلى دور رائد وشجاع من العلماء والمفكرين ليحسموا ما أشكل فيها، ومن ثم يسهمون في تشكيل وعي المجتمع فيما يخدم علاقة الإنسان بنفسه وبيئته وعالمه.ومن هنا يأتي مفهوم الوطنية/ المواطنة كأحد المفاهيم المهمة والتي تحتاج إلى رؤية متزنة وحكيمة تنفي ما يتعلق بها من خلل ولتؤكد من خلالها المشاركة الفاعلة والواعية خدمة للمجتمع وتنميته.

و في تقديرنا أن الوطنية هي الإطار الفكري النظري للمواطنة. بمعنى أن الأولى عملية فكرية والأخرى ممارسة عملية. والمواطنة (مفاعلة) أي مشاركة. وبهذا يكتمل ويتكامل معنى التجريد بالتجسيد. وقد يكون الإنسان مواطناً بحكم جنسيته أو مكان ولادته أو غيرهما من الأسباب لكن التساؤل: هل لديه (وطنية) تجاه المكان الذي يعيش فيه؟. هل لديه انتماء وحب وعطاء.؟ ذلك هو المعنى الذي نحن بصدده.

يشير عدد من الباحثين بأن مفهوم الوطنية/ المواطنة اصطلاح حديث إلا أن المعنى الذي تستهدفه الوطنية قد تناولته من قبل أفكار الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين. ويذكر البعض أن الاهتمام بهذا المصطلح قد نشأ مع ظهور الدولة الحديثة وحدودها الجغرافية والسياسية. ولفظ (مواطن) تعبير لم يظهر إلا بعد الثورة الفرنسية سنة(١٧٨٩)، أما قبلها فالناس ملل وشعوب وقبائل لا يعتبر التراب – إلا تبعاً لشيء من ذلك- وسيلة من وسائل الارتباط.

الذي يبدو لنا من وجهة نظر خاصة أن الرسول محمداً (ص) كان أول من وضع المعنى الحقيقي لمفهوم المواطنة المسؤولة والمحدودة بحدود حيث قام الرسول (ص) بوضعها على جنبات المدينة المنورة كعلامات تقع مسؤولية من أخل بداخلها تحت دائرة حكم الإسلام ومرجعيته، ويوضح ذلك دستور المدينة(صحيفة المدينة التي تعد مرجعية دستورية لسكان المدينة المنورة)..

وتعرض بنود صحيفة المدينة (٤٧ بنداً) مبادئ مهمة لفكرة المواطنة، حيث نصت على تكوين مفهوم الوطنية/المواطنة واحترام حقوقه وواجباته لكل من سكن المدينة مسلماً كان أو غير مسلم. إضافة إلى تحديد النطاق الجغرافي الذي يحاسب عليه أي إنسان اقترف جرماً داخل ما يسمى بجوف المدينة. كما تؤكد الصحيفة مفهوم النصرة المتبادلة بين سكان المدينة مسلمين وغيرهم ، وتعرض الصحيفة في مواضع مختلفة أن الاحتكام حين التشاجر والاختلاف هو لله ورسوله، مما يعني تأكيد السيادة الشرعية. وتشتمل الصحيفة على آداب وتنظيمات كثيرة.

وتتعدد مفاهيم الوطنية وتعريفاتها، فمنها ما يحمل معنى عاطفياً وانتماءً وجدانياً للمكان الذي ألفه الإنسان، ومنها ما يحمل معنى فكرياً يفضّل فيه المكان على شريعة الرحمن، ومنها ما يؤسس لمعنى قانوني يعبر عن واجبات المواطن وحقوقه تجاه وطنه. ونستعرض عددا من التعريفات منها: أن الوطنية تعني (العاطفة التي تعبر عن ولاء الإنسان لبلده)، والوطنية عند آخرين تعني تقديس الوطن وتقديمه في الحب والكره بل والقتال من أجله حتى تحل الرابطة الوطنية محل الرابطة الدينية والوطنية في معناها القانوني الحديث تعني انتماء الإنسان إلى دولة معينة يحمل جنسيتها ويدين بالولاء لها. وتعرِّف الموسوعة العربية العالمية الوطنية بأنها تعبير قومي يعني حب الشخص وإخلاصه للمواطنة بأنها عبارة عن مجموعة من الحقوق والواجبات يتمتع ويلتزم بها في الوقت ذاته كل طرف من أطراف هذه العلاقة، وقسم آخر يقول بأن المواطنة: تعبير عن جوهر الصِّلات القائمة بين دار الإسلام وبين من يقيمون في هذه الدار من مسلمين وذميين مستأمنين . ويضمِّن عدد من الكتاب مفهوم المواطنة أصول مفاهيم الإسلام حيث تستوجب عدم الإشراك بالله والتحلي بالصبر والصدق، و المواطنة هي صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماؤه إلى الوطن ، ويؤكدون أن مفهوم المواطنة قانوني في المقام الأول ثم يؤكد أن المواطنة هي أساس الشرعية، ذلك أن مجموع المواطنين هم الذين يختارون حكومتهم عن طريق الانتخاب. وبالتالي لا يمكن أن نفهم المواطنة من غير تأسيس ديمقراطي في المجتمع. من هنا يتبين من خلال هذه الجولة المختصرة لمفهوم الوطنية مدى تباين المفاهيم وسعة الاختلاف فيما بينها (رفضاً وقبولاً) مما يؤكد الحاجة إلى طرحها للنقاش للوصول إلى فهم أكثر عمقاً وواقعية علمية، ذلك أن هناك من يتحدث عن المفهوم – كما تبين- ويخلط بينه وبين مفاهيم العقيدة والشريعة الإسلامية ومنهم من يجعله عقيدة في ذاته إلى غير ذلك مما سبق طرحه. والملاحظة المهمة إزاء ذلك كله أن هناك من يتحدث دون تخصص من جهة ويلغي من حساباته أحياناً اختلاف البلاد وأنظمتها وسياساتها وخصوصياتها من جهة واختلاف استخدام المفاهيم والمصطلحات العلمية وما يترتب عليه من جهة أخرى.

وتتراوح طروحات الغربيين بين رؤى تختصر العلاقة بين الفرد ودولته إلى أدنى درجة ممكنة وبين أخرى ترى أن الفرد لا يعني شيئاً أمام دولته، ففي الأولى لم توجد الدولة إلا من أجل الفرد، وفي الأخرى لم يوجد الفرد إلا لخدمة دولته.

ويعتمد منظرو فلسفة المذهب الفردي أمثال (جون لوك) و(جان جاك روسو) على أساس الاعتراف بحقوق الإنسان وحرياته العامة باعتبارهما حقوقاً طبيعية لكل فرد وليست مكتسبة، ومهمة الدولة احترام وضمان تلك الحقوق.

وإذا كان المذهب الفردي يتجه إلى المساواة النظرية بين أفراده فإن الواقع الفعلي يؤكد عدم تساوي الأفراد في ظروفهم وقدراتهم وبالتالي فإن (البقاء للأصلح) كمبدأ يتبناه هذا الاتجاه لا يتفق مع القيم الإنسانية والشرائع السماوية بل ويهدم حقيقة المواطنة الحقة ، ذلك أن هذا التوجه الفكري يرسخ سلبية الانتماء للمجموع وبالتالي يعزز الأنانية ويعمق الفصل بين الأفراد ودولتهم.

وفي مقابل الجدل القائم لضمان مجتمع آمن ومستقر من خلال مواطنة عادلة ومسؤولة، يطرح المذهب الاشتراكي أنه لا معنى للحرية الفردية في ظل صراع المصالح الخاصة للطبقة الرأسمالية وما جدوى الحرية المضمونة بالدستور إذا كان الإنسان لا يجد الحماية من المخاطر والابتزاز بل وما فائدة حرية العمل إذا كان المواطن يترك فريسة للبطالة مما يضطره إلى التنازل عن حريته وكرامته ليواجه شروطاً حياتية صعبة.

وهكذا يطرح هذا التوجه أساس فكرة المواطنة على أن الدولة مسؤولة عن الفرد ابتداءً وانتهاءً، فلا مظهر لملكية فردية، فالكل يخدم الدولة والدولة تحدد دخول الأفراد حسب الحاجة وتشرف على الإنتاج ونوع المنتج وتلحق الإفراد جميعاً في خدمة الدولة سعياً لمحو الطبقية وتحقيقاً للمساواة كما يعتقدون ، وكان من رواد هذا التوجه (فرنسوا فريبيه، وروبرت أوين) ولكن الشخص الذي ارتبط اسمه بهذا التوجه الفكري هو (كارل ماركس).

وترتكز فلسفة هذا الفكر على إلغاء الملكية الفردية التي يُعتقد أنها الباعث الحقيقي لعملية الصراع الاجتماعي. ولذلك اعتمدت على مبدأ العمل للدولة فقط وفق شعار(من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته).

وإذا كان التوجه الاشتراكي ينزع إلى محو طبقة الرأسمالية وتحكمها في سير الأمور، فإنه في الوقت ذاته خلق تسلطاً أكثر قسوة وبطشاً من خلال سلطة الحكومة.

وهكذا تتراوح الرؤى والفلسفات في الغرب بشكل ينقض بعضه بعضاً من أجل خلق مواطنة فاعلة ومنتجه ومسؤولة.

وإذا كان الفكر الاشتراكي قد استنفد أغراضه وتساقط فإن التخوف قائم ومشاهد لدى كثير من المفكرين الاجتماعيين،على أن الغرب الليبرالي هو في الطريق إلى ذلك. ويعزو المفكر (اينشارد ابكرسلي) التفكك الاجتماعي في الغرب إلى الفشل في إعطاء " معنى وانتماء وهدف لحياتنا، وعدم وجود إطار عمل لقيمنا، وبتجريدنا من معنى أوسع لحياتنا، فقد دخلنا في حقبة يتزايد فيها انشغالنا بذاتنا بشكل مرض.

وبالمقابل نجد استجابة التشريع الإسلامي لسنن الحياة الاجتماعية أمراً جلياً وواضحاً، لكن استجابتنا نحن أو تقديرنا للمسألة الاجتماعية محل النقاش قد يشوبها خلل وذلك الذي يحتاج إلى مدارسة ونقاش. وهنا فالإسلام يعترف بعملية الانتماء الاجتماعي للأسرة (ادعوهم لآبائهم) والقبيلة (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) والدولة (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه) وجعلها أحد مقاصد الحياة الاجتماعية. ونسب القرآن الرجل لبلاده، ولكنه في الوقت ذاته أكد على لسان رسوله (ص)أنه(ليس منا من دعا إلى عصبية) . وأحداث السيرة مليئة بشواهد كثيرة في هذا المعنى.

لكن المسألة المهمة هنا هي أن تجاوز الناس حدود معنى القبلية أو العصبية أو الإقليمية لا يعني إبطال مفعولها إسلاميا وفطريا، ذلك أن الإسلام لم يأت ليمنع ما فُطر عليه الناس، لكن ليهذب ذلك المعنى وذلك السلوك.

الحقيقة التي لاشك فيها هي أن الإسلام يؤكد إعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها، سواء أكانت رابطة نسبية أم إقليمية أم عنصرية، فالمسلم أخو المسلم، والمسلم أقرب إلى المسلم من أي كافر بدينه، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهذا ليس في الإسلام وحده بل طبيعة كل دين وكل عقيدة. والوحدة المطلوب تبنيها على مستوى العقيدة غير تلك المطلوبة على مستوى الوطن، فالأولى أرقى وأسمى من أن تحدُّها الحدود والأخرى بطبيعتها ووظيفتها لها حدود.

والفكر الذي نستشعر أهمية مراجعته هو القبول بالجملة أو الرفض بالجملة للوقائع والمسائل والمستجدات الحادثة، ولذلك فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى (منهج يعتمد على التفصيل في الأشياء والموازنة بين الأمور)، وذلك منهج شرعي نحتاج إلى مدارسته وتجسيده .

ومن هنا فالفهم الذي نريد التأسيس له وتأصيله هو أن الحدود الواقعية معتبرة أن وحدة الأمة عالمياً لا تتنافى وخصوصيتها وطنياً، فلكل أهميته واعتباره وآثاره لكن نفي أي منها لصالح الآخر يعكس تقصيراً في استدراك حقائق الوطنية وأبعادها ومقاصدها من جهة والشريعة الإسلامية من جهة أخرى.

ونحتاج لتأصيل هذه المفاهيم في ممارساتنا اليومية وتغليب روح المواطنة عن سواها وتفعيل ذلك بقوة من أجل بناء صحيح لمجتمعنا الذي ما زال يعاني الانتماءات الفرعية التي تحاول بشتى الطرق أن تكون هي السائدة.

التـجمـــع.. ورهـــــان (روز اليـوســـف)

حسين عبد الرازق
كاتب مصري

لا تكف صحيفة روزاليوسف اليومية – والمفترض أنها صحيفة قومية لا تنحاز لحزب دون آخر – عن تناول أخبار وأنشطة (حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي) في صفحة (أحزاب مصرية) المخصصة للتجمع كل يوم أربعاء، مقسمة الحزب إلى جبهتين متناطحتين.. (التغيير والإصلاح) و(التجمع الموحد) فأي اجتهادات تطرح في اجتماع هيئة حزبية أو خلافات تبرز خلال النقاش في أي مستوى حزبي، سببها الوحيد طبقا لروزاليوسف هو الصراع بين الجبهتين، وكأن حزب التجمع قد أصبح (حزبين) داخل إطار الحزب.

وتسمية (التغيير والإصلاح) و(التجمع الموحد) تتعلق بانتخابات المؤتمر العام السادس للحزب الذي عقد يومي ٥ و٦ مارس/آذار ٢٠٠٨ فمع بدء الإعداد للمؤتمر العام السادس بانعقاد المؤتمر العام لاتحاد الشباب التقدمي ومؤتمرات الحزب في الأقسام والمراكز والمحافظات، كان واضحا أن هذا المؤتمر ينعقد في ظروف خاصة أكسبته أهمية استثنائية، فجيل القادة الذين أسسوا الحزب عام ١٩٧٦ غاب منهم عدد كبير، ومشاركة من بقي منهم في المؤتمر التالي (السابع) عام ٢٠١٢ مع جيل الوسط والشباب أمر غير مرجح، إما بسبب السن وعدم القدرة على مزيد من العطاء، وإما بتطبيق المادة الثامنة من لائحة النظام الداخلي والتي يفخر بها حزب التجمع، وتمنع أي عضو من تولي نفس الموقع القيادي لأكثر من دورتين متتاليتين أو للرحيل عن دنيانا أو لأي سبب آخر، كذلك انعقد المؤتمر العام السادس في ظل بروز ظاهرة سلبية أثارت قلق كل المشتغلين بالعمل السياسي والمهمومين بالعمل العام، وهددت العمل الحزبي، وهي ظاهرة مقاطعة الشعب المصري – خاصة الشباب – للعمل السياسي بجميع أشكاله، سواء التصويت في الانتخابات والاستفتاءات العامة، أو الانضمام للأحزاب السياسية أو المشاركة في أنشطتها أو الأنشطة السياسية العامة، سواء الاجتماعات أو المؤتمرات الجماهيرية أو الندوات داخل المقار أو المسيرات والوقفات الاحتجاجية السياسية.

في ظل هذه الظروف العامة والتي تتطلب مزيداً من الوحدة الداخلية في حزب التجمع والاستعداد لانطلاق العمل السياسي والجماهيري في الشارع بقوة وعزم أكبر، وجذب مزيد من الشباب والنساء لعضوية الحزب، لجأ عدد من القيادات المركزية وفي بعض المحافظات للتكتل غير التنظيمي تحت شعار جميل وجذاب (التغيير والإصلاح) محددا هدفه في إقصاء واستبعاد شخصيات وقوى سياسية داخل التجمع والسعي للانفراد بالقيادة دون طرح رؤية سياسية أو برنامج جديد للعمل أو منهج تنظيمي وجماهيري مغاير، كان التركيز على إقصاء قيادات تحملت المسؤولية منذ تأسيس التجمع في مواقع ومستويات مختلفة، خاصة التي قادت الحزب خلال دورته الأخيرة منذ المؤتمر العام الخامس.

واستشعرت عضوية حزب التجمع وعدد من قادته ومؤسسيه الخطر فلجأت إلى استنفار الأعضاء المنحازين لوحدة الحزب الحريصين على استقلاله وديمقراطيته الداخلية وكل الاتجاهات والتيارات الفكرية والسياسية التي شكلته وأعطته نكهته الخاصة المميزة، ومع انعقاد المؤتمر العام كان مطلوبا انتخاب رئيس الحزب و٤٠ عضوا للجنة المركزية يضافون الى رئاسة المؤتمر وأعضاء اللجنة المركزية المنتخبين من لجان المحافظات (٢٤٢ عضوا)، وطرح تكتل (التغيير والإصلاح) قائمة من ٤٠ عضوا استبعدت منها عديدا من المؤسسين والقادة، وطرحت في مواجهتها قائمة أخرى من ٤٠ عضوا أطلق عليها (قائمة التجمع الموحد) وكانت هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها هذه التسمية، وانتهت انتخابات اللجنة المركزية إلى فوز ١٢ من المرشحين وردت أسماؤهم في القائمتين، وفوز ١٧ من قائمة (من أجل التجمع الموحد) و٨ من قائمة (التغيير والإصلاح)، كانت النتيجة تشير بوضوح إلى أن المعركة الانتخابية لم تكن محصورة بين جبهتين فقط، فقد كان هناك عديد من أعضاء المؤتمر لا ينحاز لأي من الاتجاهين، ويؤكد ذلك فوز ٣ بعضوية اللجنة المركزية لم ترد أسماؤهم ضمن أي من القائمتين.

وتكررت المواجهة بين (التغيير والإصلاح) و(من أجل التجمع الموحد) على موقع الأمين العام ونواب الرئيس والأمناء العامين المساعدين وأعضاء المكتب السياسي والأمانة المركزية، وتكرر وجود اتفاق على المرشحين في المواقع المختلفة، كأحد نواب الرئيس الذي تكرر اسمه في القائمتين، وفوز أحد الأمناء المساعدين بالتزكية، واشتراك القائمتين في أسماء ٤ من المرشحين للمكتب السياسي (مطلوب انتخاب ١٠)، وفوز خمسة بالتزكية لعضوية اللجنة المركزية (مطلوب ١٣)، وجاءت النتائج في المواقع التي شهدت تنافسا لصالح قائمة من أجل التجمع الموحد، فحصلت على موقع أحد نواب الرئيس وعلى المواقع الثلاثة للأمناء العامين المساعدين، وعلى المواقع الستة التي كان مطلوب انتخابهم للمكتب السياسي، وعلى سبعة مواقع من الأمانة المركزية من ثمانية مطلوب انتخابهم، بينم كان النجاح الأكبر لتكتل (التغيير والإصلاح) هو الفوز بموقع الأمين العام الذي يتمتع بصلاحيات واسعة أكثر من أي عضو في القيادة المركزية، وموقع أحد نواب الرئيس وموقع واحد في الأمانة المركزية، غير الأسماء المشتركة طبعاً.

وبانتهاء الانتخابات أصبحت هناك قيادة مركزية منتخبة تمثل الحزب كله، ولم يعد هناك وجود للجبهات أو التكتلات التي تكونت عشية انتخابات المؤتمر العام، بالطبع لم يحدث ذلك دفعة واحدة بمجرد إعلان النتائج، ولكنه احتاج لبعض الوقت وللعمل المشترك خلال الهيئات القيادية، سواء من الأمانة العامة أو المكتب السياسي أو الأمانة المركزية أو مجلس الرئاسة – الوافد الجديد بعد المؤتمر – والذي شمل تشكيلة ٣ من القيادات التي لم توفق في انتخابات المؤتمر العام السادس.

وأي متابعة لمناقشات هذه الهيئات واتجاهات الرأي فيها والتصويتات – إذ تم اللجوء إلى التصويت إذا تعذر التوافق – يدرك جيدا أن (التغيير والإصلاح) و(من أجل التجمع الموحد) تسميات تنتمي للماضي ولم يعد لها وجود.

ولكن (روزاليوسف) الناطقة باسم الحزب الوطني ولجنة السياسات، مصرة على تقسيم للتجمع لم يعد موجودا في الواقع، البعض يفسر هذا الإصرار بالبحث عن الإثارة الصحفية، ولكن الغالبية ترى أنها خطة متعمدة لإحياء أجواء المعارك الانتخابية وتحويل التنافس الانتخابي المرتبط بوقته إلى صراع دائم يصيب الحزب بالشلل ويزيد من تردي الحياة السياسية، خاصة أن حزب التجمع استعصى منذ نشأته على محاولات التخريب من الداخل وصناعة الانشقاقات التي تتقنها أجهزة الأمن والحزب الحاكم.

وستدرك روزاليوسف ومن وراءها إن عاجلا أم آجلا أن رهانها على تفجير التجمع من الداخل رهان خاسر، رغم المشاكل والخلافات الداخلية في الحزب، فكل من هو في التجمع حريص على الحزب ووحدته ويعرف جيدا ما يريده له خصومه، ولن يمكنهم من تحقيق أهدافهم.

(وطار).. الشهداء يعودون

فريدة النقاش
كاتبة مصرية

رحل قبل أيام الروائي والمناضل الجزائري (الطاهر وطار) أحد مؤسسي الرواية الجديدة في الأدب العربي وأحد المدافعين عن اللغة والثقافة العربية في مواجهة الاتجاه الفرانكفوني الذي حذر (وطار) من إمكانية استيلائه ثقافيا على الجزائر بعد أن قدمت البلاد الشهداء بمئات الآلاف من أجل الاستقلال السياسي في مواجهة استعمار استيطاني دام مئة وثلاثين عاما.

أدرك (وطار) – وهو الذي تلقى تعليمه مبكرا في مدارس جمعية العلماء – أن اللغة العربية رغم أصوله البربرية هي وعاء الروح ومرتكز هوية الجزائر الوطنية، وأن معركة تحريرها تمتد على جبهتين، الأولى ضد الهجوم الثقافي الفرنسي الذي يصارع في قلب الجزائر المستقلة لإعادة إلحاقها بالاستعمار من باب خلفي، والثانية ضد التوجهات الرجعية السلفية باسم الإسلام التي نبتت لأسباب موضوعية في جزائر ما بعد الاستقلال، واستفادت من الفساد الذي استشرى في دوائر جبهة التحرير الوطني الجزائري.. الحزب الحاكم الوحيد آنذاك،وكانت قصته (الشهداء يعودون هذا الأسبوع) التي تحولت لمسرحية واحدة من العلامات المميزة التي كشفت عن جذور التحلل حين صنعت عالما فاجعا يشعر فيه الشهداء العائدون وكأن تضحياتهم ضاعت هباء بعد أن دب الفساد في عالم ما بعد الاستقلال، ودفاعا عن اللغة والرؤية المنفتحة للثقافة العربية الإسلامية، والتوجهات العقلانية فيها أنشأ قبل عشرين عاما جمعية (الجاحظين) نسبة إلى أديب العرب الفذ (الجاحظ) وشعارها (لا إكراه في الرأي) ونظم منتدى ثقافيا شهرياً في منزله بعد أن أحالته للمعاش قبل سن الخمسين السلطات الغاضبة من موقفه حين رفض فكرة التعامل الأمني مع شباب الجماعات الدينية وإرسالهم إلى مراكز عسكرية في الصحراء وعزلهم. ظل إبداعه الأدبي الغني هو دائما الوجه الآخر لنضاله العملي فاستحق وصف المثقف العضوي بامتياز ذلك المثقف الذي ترتبط أفكاره ورؤاه بالممارسة وبالجماهير التي تتوجه رسالته لها هو الذي أمسك بمبادئه كالقابض علي الجمر، ودافع عنها في كل أشكال إبداعه الثقافي.

وفي هذا السياق أهدى للثقافة العربية شخصية (اللاز) في روايته الأم التي تحمل هذا الاسم ذلك المناضل الشيوعي الذي انخرط في الكفاح المسلح ضد الاستعمار، وهو يواجه في خضم النضال خيارين كلاهما أمر من الآخر إما الذبح وإما التذكر لمبادئه.. هذا البطل غاب تدريجيا عن أحداث الرواية ليعود فيما بعد وقد فقد وعيه بتأثير الصدمة التي سببها له ذبح والده الشيوعي (زيدان) أمام ناظريه بعد أن رفض التنكر لمبادئه ليجسد لنا من الواقع الفعلي للثورة صورة المناضل الذي يتمسك بمبادئه ويموت راضيا في سبيلها. وليست محنة (اللاز) – على خصوصيتها الجزائرية – إلا تعبيرا عن الصراع الدموي المرير الذي عرفته كل تجارب التحرر الوطني وأحزابها، هذا الصراع الذي جرت في ظله التصفية البدنية للشيوعيين.. ويقول (وطار) عن (اللاز) إنها (طفرة كبيرة في الرواية العربية، تتحدث عن الثورة لأول مرة بالملموس).

وعالج (وطار) قضية الثورة الزراعية في الجزائر في روايته (العشق والموت في الزمن الحراش) ورواها من وجهة نظر طلاب متطوعين للعمل مع الفلاحين وهم يواجهون القوى المضادة للثورة التي حطمت الثورة الزراعية وأفرغتها من مضمونها في سياق إجهاض الثورة الشاملة حيث جرت بسرعة إعادة بناء المجتمع الطبقي الاستبدادي.

وفي (الشمعة والدهاليز) عالج (وطار) قضية توجه شباب الجامعات الإسلامية لاستخدام العنف والصراع بين الرؤي المستنيرة والرؤى الظلامية في جزائر ما بعد الاستقلال، وفي هذا السياق كان (الطاهر وطار) قد عارض إلغاء الجيش لنتائج انتخابات عام ١٩٩٢ التي بدا أن الإسلاميين قد فازوا فيها ورأى أن إعطاءهم الفرصة للحكم سوف يمكن الشعب الجزائري من اكتشافهم على حقيقتهم ليتعلم الشعب من خبرته الذاتية.

لم يقدم لنا (الطاهر وطار) أدبا جميلا فحسب إنما قدم أيضا نموذجا يحتذى ويدعو شباب وشابات الأدباء إلى تأمل تجربته كمثقف عضوي اغتنى إبداعه الثقافي باتساع خبرته النضالية وعمقها والتي منحته معرفة استثنائية بواقع الحياة والمجتمع، معرفة لم يستمدها من الكتب وحدها وإنما استمدها أيضا من خصوبة الممارسة. وبقي أن علينا احتفاءً بـ (الطاهر وطار) أن نقرأ جيدا أديبا ومفكراً ومناضلا، فلا نقول وداعا.